رزان

بعد مسرة وميسرة

ولدت رزان في المركز الطبي الدولي في يوليو لعام ٢٠٠٩ م. وبينما والدتها في المستشفى شاء الله لها أن تقرأ قصة «مسرة وميسرة» في الكتيبات الموجودة في كل أنحاء المستشفى وتمر الأيام وتكبر رزان لتصبح عامين وربان أربعة أعوام .. لم تعلم الأم أن هذه القصة ستكون سبباً في تغيير حياتها..

بقلم د. وليد أحمد فتيحي

رزان...
بعد مسرة وميسرة

قبل ثلاثة أعوام وفي نفس هذا الشهر أكتوبر عام ٢٠٠٨م، نشر المركز الطبي الدولي في الصفحة الأخيرة من جريدة عكاظ إعلاناً مدفوعاً سردنا فيه قصة واقعية موثقة الأحداث بأدق تفاصيلها وروياها على لسان والد الضحيتين مسرة وميسرة بعنوان «من الذي قتل مسرة وميسرة.»

خلاصة القصة هي أن كلاً من مسرّة البالغة من العمر سبعة أعوام وميسرة البالغ من العمر ثلاثة أعوام قد توفيا في سبتمبر ٢٠٠٨م، جراء استنشاقهما للغاز السام «الفوسفين» (Phosphine) والذي يُطلَق من تفاعل مادة «فوسفيد الألمونيوم» (Aluminum Phosphide) وهي أحد المبيدات الحشرية السامة التي يمنع استخدامها في المنازل نظراً لخطورتها، وإنما تستخدم فقط في الأماكن غير الآهلة بالسكان كصوامع الغلال والسفن والقطارات. فعندما تتعرض أقراص «فوسفيد الألمونيوم» للجو، تتفاعل مع الرطوبة وتطلق غاز الفوسفين السام والذي له رائحة نفاذة أشبة برائحة السمك الفاسد ويطلق القرص الواحد (الذي يزن ثلاثة جرامات) حوالي جرام من غاز الفوسفين الذي يكفي لقتل طفل صغير. حيث كان الجار هو الذي استخدم هذه المادة جهلاً منه بخطورتها مما أدّى إلى تسرّب الغاز السام إلى شقّة مسرّة وميسرة ووفاتهما.

ووضعنا القصة في كتيب وطبعنا منه مئات الآلاف ضمن برنامج المركز الطبي الدولي للتعليم والتثقيف الصحي وخدمة المجتمع، حيث أرفقنا ملحقاً توعوياً عن التسمّم بالمبيدات والوقاية من أخطار «فوسفيد الألمونيوم» القاتل بقلم الدكتور أحمد نبيل أبو خطوة أستاذ علم السموم المشارك بجامعة الملك عبدالعزيز آنذاك. إضافة، فقد أنشأنا صفحة الكترونيةً للتعريف بقصة مسرّة وميسرة (يمكنكم الإنضمام إلى الصفحة «من الذي قتل مسرّة وميسرة» على الفيس بوك).

علماً بأن عشرات الحالات قد سجلت في كثير من مدن المملكة قبل عام ٢٠٠٨م بسبب سوء الإيجار والإستعمال بهذا المبيد وقد تسببت في وفاة ٢٥ شخص على مدار عام واحد معظمهم من الأطفال. وبالرغم من الجهود المكثفة التي بذلناها بالتعاون مع وزارة الصحة والمجلس البلدي وأمانة مدينة جدة وجريدة عكاظ لنجعل من هذه المأساة قضية رأي عام، وبالرغم من الأوامر الصارمة التي أصدرت من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة مكة المكرمة لوزارتي التجارة والزراعة بتنفيذ جولات ميدانية تفتيشية مكثّفة على جميع محلات ومستودعات ووكلاء بيع المبيدات الحشرية واتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة التي تضمن عدم وجود هذه المبيدات في متناول العامة وتوجيهه للدفاع المدني والجهات الصحية بتوعية المواطنين بخطورة هذه المبيدات، وكذلك الأوامر الصادرة من صاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن ماجد محافظ محافظة جدة بسحب جميع أنواع المبيدات الحشرية ذات الخطورة العالية في عام ١٤٣٠هـ. وبالرغم من كل هذا وأكثر من هذا إلّا أن المشكلة بدأت تظهر مرة أخرى في هذا الشهر (أكتوبر لعام ٢٠١١م) وتكررت المأساة ... وفي هذه المرة «رزان وريان».

رزان في الثانية من عمرها وريان في الرابعة من عمره، وقد ولدت رزان في المركز الطبي الدولي في يوليو لعام ٢٠٠٩م، وبينما والدتها في المستشفى شاء الله لها أن تقرأ قصة «مسرة وميسرة» في الكتيبات الموجودة في كل أنحاء المستشفى. وتمر الأيام وتكبر رزان لتصبح عامين وريان أربعة أعوام .. طفلان سعيدان في أتم صحة وعافية لوالدين في مقتبل عمرهما يملكان قسطاً وافراً من الثقافة والخلق الكريم .. وفي أحد الأيام يدخل الوالد بيته ويشم رائحة غريبة، لكنّه ظنّ أنها رائحة طبخ أو ما شابه ذلك، وبعد ساعات بدأت بعض الأعراض تظهر على الطفلين من غثيان وقيء فحملاهما إلى الطوارئ، وبالطبع لم يشك أحد في بادئ الأمر في خطورة الحالة حيث أن أعراض التسمم بهذا المبيد الحشري مشابه للتسمم الغذائي الذي يرى كل يوم من غثيان وقيء وضعف عام مما أدى إلى إرسالهم إلى البيت مع طلب مراقبتهم وإحضارهم مرة أخرى في حالة استمرار الأعراض.

واستمر الحال قرابة يوم كامل ولكن عندما بدأت الأعراض تظهر على أم الأطفال بما فيها من ضيق التنفس تذكرت الأم بلطف الله وكرمه قصة «مسرّة وميسرة» التي قرأتها قبل أعوام وتذكرت أنها رأت الجيران يخرجون أثاثهم من الشقة قبل أيام فاتصلت فوراً بزوجها وطلبت منه

"من الذي قتل مسرة وميسرة؟.."

قصة واقعية موثقة الأحداث بأدق تفاصيلها
تروى على لسان والد مسرّة وميسرة

بقلم د. وليد أحمد فتيحي

أن يسأل جارهم إن كان استخدم أي مبيد في منزله. وبالفعل كان الذي خشيت منه. وفي خلال ساعة كانت العائلة في العناية المركزة تحت مراقبة دقيقة وبتنبيه الأم والأب للجار توجه هو كذلك للمستشفى حيث أن ابنته بدت عليها أعراض التسمم مثلها مثل رزان وريان. فالجار كان كذلك ضحية الذي باعه هذا المنتج الممنوع.

وبما أنه لا يوجد ترياق أو عقار خاص لعلاج التسمم بهذا المبيد. وإنما يعتمد التعافي من آثاره على قدرة الجسم على طرده منه. لذلك يتأثر الأطفال بشكل أكبر كون الأجهزة الحيوية لديهم غير مكتملة النضوج. وبذلك وللأسف الشديد لم تستطع رزان البالغة من العمر سنتين من مقاومة آثار السموم مما أدى إلى وفاتها .. ولكن الله لطف بأخيها ريّان وأمهما. وجاء اللطف بصورة تذكر الأم لما قرأته من قصة «مسرّة وميسرة» وخروجها من البيت وبذلك إيقاف استنشاق الغاز السام ووصوله إلى رئتيها وإلى رئة ريّان. ولولا فضل الله ومغادرتها للبيت لتغيّر الحال ولكن الله لا يُنزل البلاء إلا ومعه اللطف سبحانه.

أنهيت مقالتي «من الذي قتل مسرّة وميسرة» عام ٢٠٠٨ م بقولي:
«هل سيُغلق ملف قضية مسرّة وميسرة ببساطة؟ هل سيتكرر مثل هذه الحادث الأليم وتزهق أرواح بريئة؟
إلى متى سيستمر الجهل والجشع وغياب الرقابة يستشري في مجتمعنا؟
من الجاني؟ ومن المسؤول؟ ومن يستحق أن يُعاقب؟
إلى كل من أرد أن يعزى والد ووالدة مسرّة وميسرة .. أقول لهم عزوهما بأن تحيوا لهما سيرة مسرّة وميسرة..
لتصبح مسرّة رمزاً لتيسير أمور كثيرة عُسِّرت على الناس ولم تزل إلى اليوم معطّلة..
وليصبح ميسرة رمزاً لإدخال السرور في نفوس اغتالتها الهموم فأصبحت بها مكدّرة ..
ولنعيد للإنسان في مجتمعنا قيمته المهدرة ..
ولُنفعّل على أرض الواقع قول الله تعالى «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً.»
واليوم أوجه خطابي للمسؤولين وأسألهم إلى متى؟؟ إلى متى؟؟ إلى متى؟؟
لو تكررت مثل هذه المأساة في دول متقدمة لما أغلق الملف بأقل من معاقبة مسؤولين كبار او استقالة أكبر الرموز الموجودة في الوزارت.
فهل نتوقع أن نرى مثل هذا في بلادنا الغالية أم أن (مسرّة وميسرة) و (رزان وريّان) ما هم إلا حلقة من مسلسل هزلي مبكي تعودنا عليه فتبلدّت أحاسيسنا له ولمثله من المآسي!!!

نشرت في صحيفة عكاظ
في ٢٦ أكتوبر ٢٠١١ م

من الذي قتل
مسرة وميسرة

لا أدري كيف أبدأ رواية هذه القصة المؤلمة المليئة بالمواقف والعبر. إنها قصة واقعية موثقة الأحداث بأدق تفاصيلها. ليس فيها إضافة من نسج الخيال مما يجد بعض الكتاب الحاجة إليه لإضفاء شيء من الحياة على أحداث رواياتهم أو لاستثارة مشاعر قرائهم.

فكرت كثيراً كيف أبدأ رواية هذه القصة. وكلما أعدت شريط الأحداث الأليمة عادت بي إلى نقطة وموقف. ثم لأتوقف عند ذلك الموقف في كل مرة عاجزاً عن التعبير فأدركت عندها أنه لا بد سيكون البداية لسرد هذه القصة.

اليوم هو الخميس ٢٥ من شهر رمضان المبارك - الموافق ٢٥ من شهر سبتمبر لعام ٢٠٠٨ م. كنت في عيادتي عندما تلقيت مكالمة من رئيس الأطباء يعلمني أن مسرّة البالغة من العمر سبعة أعوام تلفظ أنفاسها الأخيرة. وأن تواجدي مع أهلها هام جداً أثناء هذه اللحظات العصيبة فاعتذرت من باقي مرضاي في العيادة وأسرعت للعناية المركزة لأرى المشهد الذي مازال عالقاً في ذهني كلما أعدت الشريط لذلك اليوم أعود وأقف هناك إجلالاً لما رأيت. حقاً صدق من قال «إن هذا الشرع لا يحيا إلا أن يختلط بلحم ودم ويمشي على الأرض». وقد رأيت ذلك اليوم كيف تتجلى المعاني العظيمة المجردة مثل تعلّق القلب بالله والصبر على بلائه والرضا بقضائه. كيف تتجلى هذه المعاني العظيمة في بشر حي فتحيا به. وكيف يصبح المؤمن بها قرآناً يدب على الأرض ... توقفت من على بعد أنظر لأرى وأعتبر بذلك الوالد الذي فقد ابنه الأول ميسرة البالغ من العمر ثلاث سنوات منذ سويعات قليلة وها هو الآن يودع ابنته مسرّة.

إن أعظم كتب الوعظ وأبلغ وعاظ الأرض ليعجزون أن يوصلوا هذه المعاني التي كان يخطها والد ميسرة ومسرّة في الصحف العلوية في ذلك المكان وذلك الزمان والله يسمع ويرى ويباهي ملائكته بعبده وهي تنظر إليه «قبضتم فلذات كبد عبدي فماذا قال عبدي؟».

رأيت كيف يجسِّدُ إنسان واحد في موقف ما ذلك المعنى الذي يصحح الله به ألف معنى. وكيف يكون المؤمن الواحد عندئذ هو فن الحياة كلها بل أستاذها ومعلمها بِصَمْتِه قبل نُطقه وسُكونه قبل حركته. لحن سماوي يخرج من المؤمن دون قصد أو تصنع أو تمثيل في وقت تنصهر فيه معادن الرجال ليخرج منها جوهرها ولبّها وأصلها ويتطاير كل ما دون ذلك مما يخالطها من تراب الأرض وقبضة الطين وزور الدنيا.

وقفت بعيداً أنظر إلى ذلك الأب الذي فقد إبنه ميسرة قبل ساعات وهو الآن يودع ابنته مسرّة. بل قل وقفت أنظر إلى تلك المدرسة. وقد تخيلته في تلك اللحظة وهو يمسك بستار غرفة العناية المركزة إلا كأنما يمسك بأستار الكعبة تارة ينظر إلى إبنته كأنه يناديها. وتارة ينظر للسماء كأنما يناجي ربه. وتارة أخرى ينظر إلى الأرض كمن يذكر نفسه أننا منها خُلقنا وإليها نعود.

عجيب أمر الإنسان ... بكل ضعفه يصبح مدرسة الكون عندما تعمل النفحة الربانية فيه عملها. وتقود في مثل هذا الموقف زمام أمره.

وضعت نفسي مكانه وسألتها يانفسُ ماكنتِ فاعلة في موقف مثل هذا؟ ... أكنتِ تجزعين. أو كنتِ تصبرين؟ ... لا كتب الله علينا مثل هذا الإبتلاء ... اللهم إن عافيتك أوسع لنا ... ثم قلت في نفسي «إن لهذا الرجل مع الله لحالاً» فمثل هذه المواقف تشهد بالإيمان بما يعجز كل أهل الأرض أن يشهدوا به لأحد منهم ولو اجتمعوا».

انتقلت مسرّة إلى ربها وبقي والد مسرّة وميسرة. بقي المعنى الذي أحيا الله به في قلوب كل من رأوه ذلك اليوم والأيام التي تليه من الفضائل والمعاني ما يعجز القلم أن يعبر عنه.

وذهب والد ميسرة ومسرّة في إيمان ليبلّغ زوجته بفقدان نصف أبنائهما في هذه السويعات القليلة ليكون أول ما تتفوه به الأم دون جزع ولا عويل ولا صراخ وإنما هو الإيمان بقضاء الله وقدره وحكمته ورحمته «لايأتي من الله إلا خير».

قذف الله في قلبي ذلك اليوم أن دوري أكبر وأبعد من مجرد دور طبيب أو رئيس تنفيذي لمستشفى. وأن هناك واجباً قد أوجبه الله علي سأشرك فيه المجتمع بأسره بعرضي هذه

القصة عليهم وبسردي تفاصيلها الدقيقة لهم، وقررت أن أغوص في أعماق القضية وأعيش مع والد ميسرة ومسرّة قصته كلّها منذ اللحظة التي حملهما فيها بين يديه وقد دخلا الدنيا إلى اللحظة التي حملهما فيها بين يديه وأدخلهما القبر وتركهما هناك، ووافق الأب وجلس يسرد القصة بتفاصيلها، وعشت معه ساعات لم أر فيها أو أسمع قصة والد فَقَدَ ولديه بل لأكون أنا هذا الوالد الذي فقد ابنه وابنته في ذلك اليوم.

بدأت أعيش أحداث القصة ... فحاله حالي وألمه ألمي ولسانه قلمي، ها أنا ذا أكتب قصة رحيل مسرّة وميسرة كما هي بتفاصيلها الدقيقة بقلمي وكأنني أنا الذي فقدتهما تجسيداً لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم :(والله لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

فإليكم قصتي ...
((لا أدري من أين أبدأ ... هل أبدأ من أول صرخة من فمها أطلقتها ... أو أول لحظة وقعت عيناي عليها ... أو أول يوم حملتها بين يدي ... أو أول ابتسامة رَسَمَتهَا على خديها ... أو أول خطوة مشتها تحت ناظري ... أو أول يوم صحبتها لمدرستها ... أو أول كلمة قرأتها على مسمعي.

ولدت مسرّة ابنتي الثانية، وسبحان الله كيف ولدت مسرّة، كانت بحق مسرّة لنا منذ أول يوم دخلت فيه الدنيا، فقد وصلنا إلى المستشفى لإجراء الفحص العادي ولم نتوقع الولادة، فتركت زوجتي مع والدتي ورجعت للعمل وطلبت منهم الإتصال في حالة الإنتهاء من الفحوصات وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً، وصليت الظهر، ووجدت مكالمة على جوالي فاتصلت فقيل لي ولدت مسرّة فعدت سريعاً للمستشفى لأجد طفلة سبحان الذي خلق فسوى فقد آتاها الله جمالاً، وقد نَزَعَتْ إلى أخوالها بعيونها الزرقاء وشعرها الأشقر بخلاف أختها الكبرى فريال التي آتاها الله جمالاً من نوع آخر، وأسمينا هذه الطفلة الجديدة «مسرّة» لما أدخلت في قلوبنا من الغبطة والسرور منذ يومها الأول. تحدثت مسرّة في سن مبكر جداً وما زلنا نحتفظ ببعض تسجيلات الفيديو لها وهي في شهرها السابع تنطق بكلمات واضحة وتضحك ضحكات عالية كأنها طفلة كبيرة، وعندما أتمت مسرّة من العمر سنة بدأت تتحدث بطلاقة ما عهدناها لدى الأطفال وكانت دائماً فرحة مسرورة حتى أنّ جدتها كانت تقول سبحان الله الذي خلق هذه الطفلة لم أرها قط إلا مسرورة وما رأيتها يوماً حزينة.

وكانت مسرّة متعلقة تعلقاً كبيراً بأختها الكبرى فريال التي تكبرها بأربع سنوات حتى سُمَّت فريال بأمها الثانية وكانت تنام دائماً معها.

عندما أسترجع الذكريات الجميلة أتذكر كيف جمعت مسرّة من المتناقضات ما يزيد من حبنا لها، فبالرغم من ذكائها الحاد واستغراب الناس لإدركها لخفايا الأمور وما وراء الأشياء إلا أنها كانت لينة العريكة سهلة الإقناع رغبة منها ألا تستعرض ذكاءها وأن لا تسبب إزعاجاً لنا، وكان لها منطق فطري يدهشنا في كثير من الأحيان، ومثال ذلك عندما كانت في الثانية من عمرها وحضرت حفلة مدرسة أختها الكبرى فريال، وقد عُرِضَت على الأطفال تمثيلية قصة الراعي الذي كان يملك غنمات وكان الذئب يأخذ كل يوم منه غنمة حتى نصب له الراعي فخاً وأمسك به وأخذ يضربه فقامت مسرّة في وسط القاعة صارخة «لا تضربوه .. لا تضربوه»، فأوقف عرض المسرحية واندهش الجميع من تصرفها، واقتربت منها المدرّسة وقالت لها «لا تخافي حبيبتي أليس هذا هو الذئب الذي يأكل غنم الراعي؟» فأجابتها «نعم»، ثم سألت مسرّة المدرّسة على مرأى من الناس «وهل يأكل الذئب الدجاج كذلك؟» فأجابت المدرسة «نعم» فقالت مسرّة «وأنتِ مش تأكلي الدجاج كمان» فبهتت المعلمة وضحك جميع من في القاعة من تعليقها الذكي الفطن، وما هذا إلا موقف من عشرات المواقف التي تنم عن فطنة وذكاء حاد.

كانت مسرّة مليئة بالحياة والنشاط لا تكاد تستقر في مكان واحد، وعندما أسترجع كل ذلك النشاط والحياة يبدو لي كأنها كانت تعلم أن أيامها على هذه الأرض معدودة فكان لها أن تعطي كل لحظة من حياتها حقها حتى لا تضيع لحظة من حياتها فيها شيء من الحياة ولم تخرجه منها تلك الصغيرة لتحياها وتحيا بها وتُبقي لنا ذكريات مليئة بالنشاط والأخذ والعطاء، فسبحان الذي جمع في هذه الطفلة المتناقضات العجيبة، فبالرغم من نشاطها غير العادي وروحها الإستكشافية وحبها للمغامرة والدعابة والضحك أو ما نسميه في العامية «بالشيطنة» في البيت، إلا أنها كانت نموذجاً في الإنضباط والسيطرة على تلك الروح المفعمة بالحياة، فكانت تذهلنا بمدى سيطرتها على نفسها وتحكمها في تصرفاتها، وكانت تغار من أختها الكبرى فريال -تدلل بإسم فراولة- كيف تمسك فريال بالقرآن وتقرأ فيه ومسرّة لا تقرأ بعد، وتأتي فتحمله مثل أختها فتناديها أمها أن لا تلعبي بالقرآن فكانت هذه القضية تسبب لها عقدة، وحفظت معظم السور الصغار من أختها الكبرى وهي تحفظها على مسمع منها وما كانت تقرأ آنذاك، واعتبرت مسرّة إنضمامها لأختها الكبرى في نفس المدرسة هو أكبر مكافأة لها.

كيف أنسى طفلتي الصغيرة مسرّة؟ كيف أنها قبل أول يوم دراسي لها بشهر كامل تستيقظ كل صباح باكراً وتعلق شنطتها في ظهرها وتمسك المصحف بيدها اليمنى وتقول لها أمها أتركي المصحف يا مسرّة .. وتجيبها «لا أنا خلاص زي فراولة ما تاخدوا مني المصحف أبداً».

وبالرغم من قدرتي المادية الجيدة إلا أن زوجتي رفضت أن تكون معنا خادمة في البيت حرصاً منها أن تعتني بأبنائها بنفسها تسهر عليهم وترضعهم حتى ينفطموا وإن طالت الفترة إلى عامين أو يزيد. وأنا في المقابل كنت لهم سائقاً وأرعى مصالحهم وطلباتهم بنفسي، فكنّا بذلك أسرة مترابطة متلاحمة يسعى كل منا ليخدم الآخر، وأبناؤنا لا يفارقوننا، ولا أذكر أننا خرجنا يوماً وتركناهم لغيرنا يعتنون بهم، وكانت كل تقارير مسرّة في مدرستها تعكس مثاليتها وانضباطها واجتهادها وذكاءها، وإن كان فيها شيء عجبت له مدرساتها وهي إلتفاف زميلاتها دائماً حولها، وكانت المدرّسة تعجب لذلك فسَألَتها يوماً عن سبب ذلك فكانت إجابة مسرّة تلقائية فطرية «أنا أحبهم وهم يحبونني». وهل لغير الحب الصادق تنجذب الأرواح وتُمتَلك، وقد أتي الله بحق صغيرتي محبة في قلوب خلقه إلى الحد الذي جعل أمها تخاف عليها. وأنهت مسرّة عامها الأول وكانت نهاية مشرفة حيث اتصلت بي مديرة المدرسة وسألتني «هل عند مسرّة مُحَّفظة للقرآن في البيت» فأجبتها «لا، هي تحفظ فقط في مدرستها» .. فقالت: «أنا أستغرب من قرآتها فإنها تقرأ بتجويد لا بد أنها درست على يد أحد» ... أي نعم والحمد لله أنا كنت مُحَفظاً للقرآن ولكنني لم أُحِّفظَها ولم أُقرِّأها، فاستئذنتني المدرّسة أن تأخذها تقرأ في الفصول الأخرى لتشجيع باقي الطلبة، فترددت واستشرت أمها ثم توكلنا على الله، واتصلت بي المدرسة مرة ثانية تستأذنني أن تقرأ مسرّة في حفلة للطلبة الكبار فأجبناها أن مسرّة ما زالت طفلة صغيرة وهذه مدرسة تحفيظ فيها كثير من الفتيات الحافظات، ولكن الله وهب مسرّة صوتاً جميلاً وتلاوة مميزة، وكانت تتقمص أصوات كبار القراء كالحصري والمنشاوي بل وتتجهم وترسم على وجهها الجدية والوقار وكأنها شابة لا طفلة، وكانت مسرّة مولعة بالقرآن ومتلهفة أن تحفظ أكبر قدر ممكن حتى تلحق بأختها الكبرى فريال، حتى أنها أصرّت في السنة الثانية أن تسبق مدرستها ووعدتها أن أحضر لها محفظة بناء على إلحاحها.

وفي يوم سألتُ أمها ما سبب استعجال مسرّة في حفظ القرآن فلم تعرف السبب، فطلبت من أمها أن تستفسر منها وتستدرجها في الكلام لتعرف منها ما تريد من وراء هذا الإستعجال، هل هي تنتظر منا مكافأة أو هدية أو غير ذلك؟ .. وأي إجابة تلك التي أجابتنا بها مسرّة فقد قالت لنا «اللي يحفظ القرآن ربنا يلبسه تاج الملك ويلبس أمه وأبوه، ولو أختي فريال حفظت قبلي حتلبسكم التاج قبلي وأنا ما أبغى .. أنا أبغى التاج حقي هو الأول تلبسوه».

والله ما سررت في الدنيا قدر ما سررت بتلك الكلمات، واستمرت مسرّة تجلب لنا السرور بشتى أشكاله وصوره وألوانه، فقد حباها الله ذكاءً حاداً وسرعة في الحفظ عجيبة فكانت

تحفظ صفحتين في اليوم الواحد حفظاً كاملاً ليس فيه خطأ واحد، وكان لها تفسيرها الفطري للآيات .. تلك الفطرة الحيّة التي هي خير ما يتجاوب مع كلام فاطر السماوات والأرض دون تصنع أو تكلف أو تطويع للآيات أو نظر عميق فيها بتلك الأدوات التي يحتاجها العلماء لفحص معاني الآيات، ففي يوم جاءتني أختها فريال وقالت لي: (يعني أيش «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» يعني ربنا جاء معاهم في الغرفة سمعهم) فأجابتها مسرّة وهي مستلقية: «يعني أفهمي يا فراولة إن الله يسمع كل شيء حتى لو كنتي تحت السرير يسمعك»، وكأنها بقولها هذا قد فهمت قوله سبحانه وتعالى «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبير»، أو قوله سبحانه وتعالى «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

كنا في يوم نجلس ونشاهد التلفاز فجاء الحديث «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله» وتحدثنا عن أناس يطردهم الله من رحمته قالت: «أيوه الملاعين» قلت لها «الملاعين مين؟... الشياطين؟» قالت «لا» قلت لها «يعني إيش» قالت «دحين أقول لك»، وقعدت تقلب في التلفزيون ولكن لم تجد ضالتها ونَسيتُ أنا الموضوع وبعد نصف ساعة أو يزيد وجدتها تصرخ علي فنادتني فأتيتها وقلت لها خير وجدتها تنظر إلى قناة وأتت بحديث «لعن الله الراشي والمرتشي» قالت لي «هدول في منهم ملاعين ... هم دول الملاعين زي كده عرفت يا بابا مين هم الملاعين»، وأنا أقف بين يدي طفلتي في ذهول واندهاش، هل كانت طفلتي حقاً تعلم معنى الراشي والمرتشي؟!.. أو أن الذي أنطقها هو فاطرها، وهل يجري الله الحق إلا على ألسنة مثل هذه القلوب الطاهرة، وهذا الفطرة السليمة التي لم تنتكس بعد.

مازالت كلمات صغيرتي وضحكاتها تدوي في أذني ... وما ذكرت لكم هنا إلا غيض من فيض، وهذا الذي يجعلني أسأل نفسي كيف أوزع صبري؟ أأوزعه على كلماتها وضحكاتها التي ما زلت أسمع صداها في أرجاء بيتي؟ .. أو أوزع صبري على ذكرى كل حركة قامت بها في حياتها محفورة في عقلي وقلبي؟ .. أو كل مكان كان له مع طفلتي لحظة حياة ... يُخرج لي به طفلتي من قبرها فأعود أدفنها، فكنت لا كالذي دَفَن روحاً واحدة .. بل كالذي يدفن أرواحاً وأرواحاً في كل لحظة من حياته .. وإنني أموت بموتها كل يوم على قدر ما يحيي المكان والزمان من ذكراها.

وكان من نقاط ضعف صغيرتي مسرّة أنها كانت لا تقدر أن ترى أحداً مكدراً متألماً حزيناً، وكنا إذا أردنا منها شيئاً هو خير لها لا نجد أنجع طريقة من أن نُظهر لها حزننا ودموعنا فتفعل ما نطلبه منها حتى لا نحزن وتقول لنا «أهم شيء إنكم ما تزعلوا». وتمر الأيام وجاء

١٤٢٧/٤/٤ هـ. ومسـرّة في السـنة الثانية وقد أكرمنا الله بميسرة .. وُلِدَ ميسرة وقد كان كالتوأم لأخته مسرّة وإن كان فارق السن بينهما أربع سنوات.

حقاً قلّما تجد إثنين يتماثلان في الطباع والتصرفات كتماثل مسـرّة وميسـرة. حتى طريقة حَبْيَهُما على الأرض تختلف عن أختهما فريال وأخوهما بلال الذي لم يكن قد وُلِدَ بعد فكانا يحبيان بإسـتعمال يد واحدة فقط هي اليد اليمنى. وكان هذا ليس بطبيعي عند الأطفال. وكانا ملتصقان كالتوأم. تشـابه عجيب في الصفات والحركات والطباع. وكان ميسرة دائماً يستعين بمسرّة دون غيرها في البيت في كل صغيرة كبيرة. وكان ميسرة ينام في السرير مع أمـه. ثم انتقل إلى غرفة إخوته. وكان يلعب مـع أخته طوال يومه ولكن يقوم في منتصف الليل ويلجأ إلى أخته الكبرى فريال وينام معها إلا في ليلة واحدة ولأول مرة في حياته ذهب ونام في حضن أخته مسرّة. وكانت تلك هي الليلة الأخيرة في حياة ميسرة ومسرّة.

وكان لميسـرة كذلك روح عجيبة. إبتسـامة عريضة لا تغادره. مليء بالحياة يدندن طول وقته بألحانه الخاصة وينشـد بكلمات يختلقها وينمقها. إنها طاقـة عجيبة ونفس حلوة لم أره يوماً يستيقظ من نومه إلا وإبتسامته العريضة مرسومة على وجهه حتى وهو يحاول فتح عينيه عند الإسـتيقاظ. وكان ميسـرة كأخته مسـرّة يحب العطور. أذكر أنني دخلت يوماً ووجدت البيت مفعماً بالعطر ووجدت مسـرّة وكانت آنذاك خمسـة أعوام وقد أفرغت عودة كانـت لي أثيـرة وقبل أن أنطق قالت لي «أنـت مو قلت إحنا كلنا مع بعض في كل شـي» فَسَـكَتُّ. وكان هو مثلها يتسلق على التسريحة ليشم رائحة العطور. وخِفْتُ عليهما من إسـتعمال عطر الكبار فأحضرت لهما عطور خاصة بالأطفال. وكان ميسـرة يحب العطر كثيراً ويسـميه «أناه» وكان العطر عنده قيم وأثير وعنده بالدنيا كلها. وكبرت مسرّة وكبر ميسـرة تحت سمعي وبصري. وكانت مسـرّة تغار من ميسرة وهو معي. واتضح لي أنها لم تغـر من حبي له. وإنما غارت عليـه مني فهي تريده ان يكون معها طوال الوقت ... إنها غِيرَة لم نسـمع عنها من قبل. وكانت ضحكة ميسـرة تملأ البيت كلّه وكان عندما يذهب للنوم نُسـرع للنـوم لأن البيت يصبـح هادئاً هدوءً موحشـاً دون غنائه ودندنتـه وقهقهته وروحه المرحة العجيبة.

كيف بالله عليكم أوزع صبري؟!.. وعلى ماذا أوزع صبري؟!. .
طوال شـهر شعبان وميسـرة ومسـرّة يهيئون أنفسـهم للعيد الذي لم يروه .. فكل يوم تفرش مسـرّة ملابـس العيد وتخطط لأيـام العيد متى تلبـس هذا ومع ماذا؟!.. وميسـرة وهو لم يبلغ الثالثة بعد لا يسـتطيع الوصول إلى ملابسـه إلا الملابس الداخلية فيخرجها كذلك ويفرشـها مثل أخته ويسميها «الجديدة». وظلّوا طوال شهر كامل يخرجون الملابس ويحلمون بأيام العيد ونحن نعيش معهم أحلامهم ونشاركهم السعادة والغبطة والبهجة

والسرور. وكان ميسرة يصلي معنا وأداعبه وأقول له «ياشيخ روح أنت ما أنت حتى متوضي وقبلتك هي التلفزيون». ولكنه كان لا يردّ علي ويرسـم على وجهه تعابير كالتي ترسـمها مسـرّة كلهـا جدية مثل تعابير الكبـار وكأنه يقول لي «أنا دحين فـي الصلاة لا تزعجني». ومثل أنه مندمج في الصلاة ويرفع يده الصغيرة التي كنت أدعو الله بها في أحلك الظروف وأقول يا رب إشفع لي بهذه اليد الصغيرة التي ارتفعت إليك. وكان تماماً كأخته مسرّة كلما ارتكب خطأ فمثلاً حين يسـمعنا نصرخ ونقول «من كسـر هذا؟» وكان هو الفاعل وخشي العقاب جرى وكبر ودخل الصلاة بأي قبلة كانت ليكسب وقتاً حتى نهدأ من غضبنا وننتظر حتـى ينتهـي من الصلاة. وأحياناً كانت تطول هذه الصلاة .. سـبحان الله كان رمضان هذا مليئاً بالبهجة والسرور والسعادة .. كنا فرحين بكل شيء مهما صغر.

فريـال إبنتـي الكبرى التي حماها الله لنـا .. وهي ابنتي البكر ودرة البيت تسـاعد أمها ومعهم مسـرّة. وكنا نهيء للإنتقال لبيتنا الجديد الذي أخرنا الإنتقال إليه إلى بعد رمضان حتـى لا يلهينا عن إغتنام شـهر رمضان والتركيز في العبـادة. فكنا نذهب قبل رمضان إلى بيتنا الجديد كل أسبوع وقد اختار كل من أبنائي غرفته وألوانها والرسومات التي فيها حتى شـكل المسـبح اختاروه هم وصمّم على أساسـه. جناح منفصل لفريال ومسـرّة بغرفتين وصالة وحمام. وكذلك الحال لميسرة وبلال. وكانت فريال ومسرّة تضحكان على ميسرة كيف يكون له غرفة خاصة ويقولون وهم ضاحكون «لو وُضع في الحمام ما يقول شـيء». وأجيب سيكبر قريباً إن شاء الله ويتغير الحال ... والحمد لله على كل حال.

قبل وفاة مسـرّة بأشـهر عبرت لي زوجتي عن خوفها على مسرّة حيث أنها أصبحت تحفظ بسـرعة عجيبـة صفحتين فـي اليوم أو يزيد وتجلـس إلى أمها وتحدثها بلغة ليسـت بلغة عمرهـا فتقـول لها «هذه السـورة مرّة عاجباني .. هـذه الآية مرة حلـوة». وتكون النتيجة تفاعل عجيب بين مسـرّة مع القرآن وتُنْهِي في اليوم الواحد صفحتين ونصف بكل سهوله ويسـر. وجاء شـهر رمضان .. آخر رمضان لمسـرّة وميسـرة. وقد وَعَدْتُ ابنتي فريال البالغة من العمر عشـر سنوات والحافظة من القرآن تسـعة أجزاء أنها إذا حفظت جزءاً جديداً من القرآن فلها جائزة قيمة. ووعدت مسرّة أن لها مثلها إذا حفظت نصف جزء من القرآن على أن ينتهيـا مـن هذا الحفظ قبل الخامس والعشـرين من رمضان حيث أن المُحَفّظة ستسـافر ولابد أن تُسـمّع لهما قبل سـفرها. وبعد ساعتين وجدنا مسـرّة حزينة «مبوزة». وسألناها لمـاذا أنت حزينة فأجابت «ليش تقـول لفريال تحفظ جزء وتقول لي أنـا أحفظ نصف جزء». فأجبناهـا «أنـتِ أصغـر وإذا أردتـي أن تحفظـي أكثر من النصـف فاحفظـي». قالت «أيوه وأسـبقها أنا أحفظ قبلها». ووعدناها بجائزة إن هي فعلت. وجاء اليوم الموعود يوم الخميس الخامس والعشـرين من شـهر رمضان وأنا بين التراويح والتهجد في الحـرم رأيت مكالمة من البيت فاتصلت وأجابتني ابنتي مسـرّة وصوتها كالعادة فرح وإن كان أكثر من المعتاد وتقول

كلام غير مجمّع لشدة فرحها وسرورها «أيوه أنا ... تاج ... هدية ... جائزة ... خذ ماما». قالت لي زوجتي «يا سيدي مبسوطة لأنها دوبها الساعة الواحدة وانتهت من الجزء الجديد وسورة إضافية فوقها وهي الآن سابقة المدرسة بجزئين تقريباً» وأمها تضحك وتقول لي «هي التي طالبت المحفّظة بالجلوس عنوة وقالت ما تخرجي قبل ما أَسمِّع كل اللي حفظته معاكي» وجرت على أمها في المطبخ وقالت لها «إقرأي علي الفاتحة» – نعم - طلب غريب عجيب يصدر من طفلة لأمها. وتعجب الأم لطلب ابنتها ولكن لله في خلقه شؤون وله معهم حال لا يدركه ولا يراه إلا أولو الأبصار. وكانت سعيدة سعادة عظيمة بانتهائها من تسميع جزء كامل وسورة فوقها دون خطأ واحد فقالت لها الأم «سيحضر لك بابا ما طلبت من بلاي ستيشن ومطالبك الأخرى». وبدأت تخطط الطفلة مع أمها أين تسافر وتذهب للفسحة وماذا تشتري من هدايا للعيد والمكافآت وجهاز الكمبيوتر وتشاتينج على الإنترنت وغيره مما يتطلع له أطفال اليوم. وإن كانت مسرّة غير كل هؤلاء الأطفال في أن جائزتها الكبرى في كلمة ما زالت ترددها وهي «التاج».

نعم لقد كان جُلّ همها أن تلبس التاج بحفظها للقرآن وأن تُلبس أباها وأمها هذا التاج يوم القيامة قبل أختها فريال.

بعد إنتهاء صلاة التهجد عدت إلى البيت ووصلت الساعة الرابعة والنصف. وككل يوم يكون الأبناء نائمين فأتسحر أنا وزوجتي. ولكن اليوم كان مختلفاً عن باقي الأيام فميسرة ما زال مستيقظاً ولا يريد النوم ونشيط ويلبس البيجامة التي يسميها «النامة». وجاءني وتعلّق بي بطريقة غريبة -غريب أمر ميسرة ومسرّة- كأن ميسرة كان يعلم أن هذه آخر ليلة سيقضيها معي ومع والدته فأراد أن يأخذ منها أكثر ما يستطيع ويعطي فيها والديه آخر سويعات له على وجه الأرض. فتسحّر معنا وبقي للفجر ثم ذهب للنوم. وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي يجري فيها ميسرة إلى أخته مسرّة وينام في حضنها. وتصف الأم بغرابة كيف نام في حضنها ووضع رأسه على صدرها ورجله على رجلها وأخذ يدندن كعادته وكأنه كان يعلم أنهما سينتقلان عما قريب سوياً إلى مكان واحد فبدأت رحلتهما سوياً في تلك الليلة. وجاءت الساعة الحادية عشرة صباحاً ووجدت ابنتي فريال البالغة من العمر عشر سنوات تقف على رأسي وتوقظني وهي تتكلم بصعوبة وتقول «أنا وماما وميسرة تعبانين». فخرجت من الغرفة ولقيت زوجتي وأطفالي الأربعة على الأرض. ميسرة مطروح على الأرض وجهه شاحب وشفائفه زرقاء وزوجتي تمسك ببطنها وكلهمم يتقيأون. وفريال تترنح وتكاد تسقط من طولها وأنا في ذهول لِمَ لَمْ توقظوني من قبل؟!.. وعلمت

أن الأمر حدث بسرعة فائقة وفي لحظات لم يعد لديهم قدرة على الحركة وكأنّما أصابهم الشلل. وكانت الحال كذلك بمسرّة وهي مطروحة في الصالة. فقلت في نفسي ليس هناك وقت. وهل الإسعاف سيأتي بسرعة؟! .. فحملت الإثنين الصغار وأمهم تتكئ علي وناديت إحدى أخواتي وهي طبيبة إستشارية أطفال. لا أدري كيف وصلنا إلى المستشفى؟! وصلنا الطوارئ وكل الذي يدور في خلدي هو تسمم وأقصى ما سيكون هو غسيل للمعدة. وكان ميسرة يتكلم وما زال في وعيه وإن كان مرتخي الأعصاب. وكان يصرخ ويبكي وما زال فيه قوة. وبدأ فريق الأطباء والتمريض في العمل وبدؤوا في وضع إبرة المحلول .. وفجأة ومن وضع النائم المتعب المرتخي العضلات قفز على طرف السرير ونظر إلى الباب كأنه رأى شيئاً أزعجه أو أن شخصاً دخل علينا فظننت أن أمه دخلت علينا. فنظرت بسرعة فلم أر أحداً دخل وأعدت نظري إليه فإذا بأعضائه كلها ترتخي فجأة وفي ثوان رأيت الفريق الطبي يحاول إنعاش قلب إبني بلا فائدة حتى أن الأطباء أنفسهم كانوا في ذهول لسرعة ما حدث. وعلمت بعد ذلك أن الأطباء قضوا وقتاً طويلاً في محاولة إنعاش القلب لإبني دون فائدة. ولكن الوقت مرّ بالنسبة لي كأنه دقائق وثوان. ولم تنزل عيني عن الشاشة التي فيها رسم دقات القلب لعل الحياة تدبّ مرة أخرى في إبني ميسرة .. كنت أبحث عن معجزة تنزل من السماء .. لم أكن اتصور أن هذا الوجه البريء يسكت عن الكلام. لم أكن أتصور في يوم من الأيام أنني سأقف مثل هذا الموقف .. لم أكن أتصور أن هذا الوجه البريء سيغيب عني وأنه سيسكت عن الكلام للأبد .. يارب .. يارب .. يارب. تمنيت أن أستطيع فعل شيء.. كل الذي كان في حيلتي هو الدعاء ومسح آثار الدم التي تخرج من أنفه وفمه وكنت أقول في نفسي دعها تخرج قد تكون هذه آثار حياة تعود.

عجيب أمر الإنسان .. كيف تختلف عنده المعايير وتنقلب الموازين بتغير الأحوال. والله إني كنت سعيداً في كل مرة يُصعقُ فيها قلب إبني الصغير بالكهرباء ويهتز كل جسده ويعود القلب يرتعش أمامي على الشاشة لأن ذلك يعني شيئاً واحداً أن هناك أمل .. أي صورة من صور الجنون هذه أن يتمنى والدٌ أن يُصعَقَ قلب ابنه بالكهرباء. ولكنها حال أب لا يريد أن يفقد إبنه. وبعد فترة من الزمن فقدت إدراكي بالزمن. ورأيت الدموع تنهمر في عيني الطبيب الذي ينعش قلب ميسرة فعلمت أن كل شيء قد إنتهى. لم أكن أتصور في حياتي أن أباً عاقلاً يقبل أن يشق صدر إبنه أو أن يفتح في رأسه فتحه ولكن شدة خوفي على فقدانه للأبد جعلني أتمنّى في تلك اللحظة أن يشقوا صدر إبني لأن ذلك كان يعني بالنسبة لي أنه ما زال هناك أمل أن يعود لي إبني ميسرة فلم أكن مهيئاً لوداعه. وفي لحظة نظرت فوجدته مرتخي الجسد بارداً وأنا أسأل نفسي أين ذلك الوجه الأبيض الأشقر الجميل؟!.. أهكذا ينتهي كل شيء في دقائق؟!.. كان يتكلم قبل ساعة!!.. كان يلعب معي البارحة!!.. لم يكن عند أحد إجابة عن الذي حدث؟! وكيف حدث؟!..

وانتهى كل شيء وغاب ميسرة عن الدنيا وودّعها .. علمت في تلك اللحظة أن باقي أفراد أسرتي في العناية المركزة، وتمنّيت أن آخذ ميسرة معي إلى هناك، يعلم الله أن تركي له في غرفة الطوارئ كان أشق وأصعب علي من أن أموت وأحيا ألف مرة وأُقطَّع ويُفعل بي أي شيء، ولكني مضطر أن أترك طفلي الصغير ميسرة فباقي أسرتي كلهم الأربع في العناية المركزة لا أدري بحالهم.

كان علي أن أتماسك وأن لا أُبدي حزناً وأن أقف بجوار كلٍ من زوجتي وأبنائي الثلاث الباقين لي على وجه الأرض، فبدأت بابنتي فريال «درة أبنائي وبِكري» فوجدت حالتها مستقرة، وجريت لغرفة مسرّة فوجدتها في حالة مستقره وما آلمني إلا أنها ذهبت للمستشفى وهي صائمة ورفضت أن تفطر بالرغم من إصراري على أن تفطر وهي طفلة صغيرة لم يكتب عليها الصيام بعد، وما أن وصلنا إلى المستشفى إلا وشفائفها مشقّقة من الجفاف وترفض أن تشرب وإن كانت منذ وصولها تأخذ السوائل والمحاليل بالوريد، وجلست بجانبها وهي واعية والحمد لله وتتحدث إلي وإلى عمتها وأمضينا تقريباً ست ساعات على هذا الحال وقلنا الحمد لله بدأت الأمور تستقر وتهدأ، وإن كان هناك شيء في نفسي يجعلني غير مستقر وهو علمي بالإرتباط غير الطبيعي بين كلٍ من مسرّة وميسرة، وهي تتلقى الأكسجين والسوائل بالوريد وموصلة بأجهزة القلب والتنفس الصناعي ورسم تخطيط القلب وغيره من مستلزمات الرعاية المركزة، علمت بعد ذلك أن المستشفى قامت بالإتصال بمركز سموم جدة وبإرسال عينات لمعرفة نوع التسمم، وبحكم إتصال المستشفى المباشر بأمريكا فقد تم كذلك الإتصال ومناقشة الحالات مع مركز السموم في ولاية «كاليفورنيا» بأمريكا أجراها رئيس الأطباء في المستشفى، وقدم شرحاً إكلينيكياً متكاملاً، وبدأ الشك في أن هذه ليست حالة تسمم غذائي عادي، وقد يكون هناك سم قاتل فيه مادة الألمنيوم، وبالتحديد مادة فوسفيد الألمنيوم (Aluminum Phosphide)، وقد علمت مؤخراً أن ليس هناك وللأسف الشديد أي علاج لمن يستنشق الغاز السام الصادر منها، وبعد استجواب ومراجعة تاريخ اليومين الماضيين بالتفصيل بدأت الشكوك تزداد وتتضافر المعلومات التي تشير بأن ما نتعامل معه هو تسمم ناتج من إستنشاق غاز الفوسفين (Phosphine) السام المنبعث من أقراص مبيد الآفات فوسفيد الألمنيوم، وأن أحد سكان الأدوار السفلية في العمارة التي نقطنها قام بوضعه بشقته بكميات كبيرة وأغلقها وسافر إلى بلاده، من الذي يبيع هذه المادة السامة؟!.. من الذي أرخصها واعتمدها كمبيد حشري للأماكن المأهولة؟!.. من الذي يراقب هذه المواد السامّة ويأذن باستيرادها؟!.. من الذي وفّرها له بهذه الكميات القاتلة؟!.. من الذي يشارك في قتل أبنائنا بجهله أو إهماله أو جشعة؟!..

بقيت بجوار ابنتي مسرّة أمسك بيدها حتى جاءت الساعة التاسعة والنصف مساءً، وكانت كل الأمور تسير بشكل جيد وبجانبها معي عمها وعمتها «أختي الصغيرة وهي

طبيبة في الجراحة»، وتسأل مسرّة «كيف حالك يا مسرّة» وأنبوب التنفس في فمها فتشير بأنها جيدة، وفي لحظة أصبحت تتكلم بسرعة وتشير لنا حتى ظننا والأطباء أنها حالة عصبية وهي تحاول أن تتكلم وتشرح لنا أنها ترى شيئاً وتطالع للأعلى .. نفس النظرة التي نظر ميسرة بها إلى باب الطوارئ، ونظرت ولم أجد أحداً ثم غاب عني تكرر المشهد مرة أخرى مع إبنتي مسرّة .. أخذت أحدّثها .. أقول لها يابنتي «مين فوق؟ مين قاعد يكلمك؟» وهي تريد أن تشرح، ولكنني لا أفهم لوجود أنبوب التنفس في فمها، وطلبت منها أن تمسك بيدي ففعلت ودخل مجموعة أطباء آخرين، وعلمت آنذاك أنهم أصبحوا قلقين بأنهم يتعاملون الآن مع هذه المادة السامة القاتلة والغاز القاتل والتي وللأسف ليس لها علاج في حالة إستنشاق كمية كبيرة منها. ودخل رئيس قسم التخدير وقال لي أننا نتعامل مع دورة ولكننا لسنا متأكدين منها بعد، ولم أرد أن أشركهم مخاوفي ولم يريدوا بعد أن يشاركوني في التفاصيل المشئومة، وكانوا متفائلين أنها ستعيش بالرغم من ذلك وسألنا مسرّة «كيف حالك يا مسرّة» فهزت رأسها وهي واعية فاسترخينا .. وفجأة سمعت نفس الجرس المشئوم .. لقد توقف القلب، لقد كانت تتحرك قبل دقائق تجيبني وتستجيب لي وتتكرر نفس الدورة مثل ميسرة وأصبحت أُشِير لهم على ثوبي وفيه دم إبني ميسرة وأقول لهم «ما نشف دم ميسرة .. بس خلوه ينشف».

وانتهى كل شيء .. غابت مسرّة كما غاب ميسرة في لحظات، ترى ما هذا الذي رآه ميسرة ورأته مسرّة لحظات قبل وداعهم هذه الدنيا؟! .. ليتني أسمع من صغيرتي ما هذا الذي رأت وليتني أسمع من صغيري ما هذا الذي رآه؟!.. يقولون لي إصبر .. وإني والله سأصبر، ولكن كيف أوزع صبري؟! .. أأوزعه على كلماتهم التي ما زالت ترن في أذني؟! أو على ذكرى ضحكاتهم ولعبهم بين يدي؟! أو على أحلامهم؟! .. أو أصبر على رؤية أمهما وهي تستقبل الخبر ونعيش ما بقي من عمرنا نداوي هذا الجرح العميق؟! .. أو أصبر وأنا أرى درّة قلبي وبكري فريال وهي تخوض الحياة وقد سُلبت أختها الوحيدة وأخاها؟! .. كيف ستعيش وتتعامل مع هذه المأساة؟! .. أمسك بجدار غرفة العناية المركزة أنظر إلى إبنتي مسرّة وقد أحاطها الأطباء من كل مكان لا لشيء إلا لحرقتهم وألمهم أن يتركوها، كالذي علم بعقله أن كل شيء إنتهى ولكن قلبه لا يطيق أن يذعن ويقبل .. وبقينا ننظر لها وقد انتقلت لربها، وحولها سبع أطباء يذرفون الدمع حزناً عليها.

وخرجت من هناك ولا أدري أخروجي من هذه الدنيا سيكون أصعب أو خروجي من تلك الغرفة وقد ودعت فيها ميسرة ومسرّة في بضع ساعات .. رحلة قصيرة تلك التي قضيتها معكما يا ميسرة ويا مسرّة، ثم أسرعت لابنتي فريال وجلست بجانبها وزوجتي وابني الرضيع بلال وهم مازالوا في غرف العناية المركزة، وأصبحت أتنقل بينهم لا أدري كم سيبقى لي منهم بعد نهاية هذا اليوم الذي بدأ بمكالمة هاتفية من مسرّة وأنا في الحرم بين صلاة التراويح

والقيام لتبشيري بانتهاء جزء من القرآن وسورة فوقها. وتذكر كلمة «التاج» وكلام آخر كثير. فقدت في هذا اليوم إثنين من أبنائي ومازال هناك في اليوم ساعات .. يارب رحمتك ولطفك بما تبقى لي من أهلي. وانتهى اليوم وأبقى الله لي زوجتي وابني الرضيع بلال ودرة أبنائي فريال .. فالحمد لله الذي أعطى وأخذ .. وكل شيء عنده بمقدار. وتجلدت وصَابَرتُ معي أم مسرّة وميسرة. ساعات أليمة تلك التي قضيتها مع زوجتي في العناية المركزة وهي على سريرها ورأسي على جانب سريرها لا أكاد أرفعه من ثقل ما أحمل.. لم أكن أتصور أنني سأدفن ابني وابنتي الطفلين بل أن أدفنهما في يوم واحد.. وكم مرت عليّ اللحظات مر الشّفرات تقطع لحمي وتفري عظمي وأنا واقفٌ بين القبرين والكل من حولي مجتهد أن يواريهم الثرى وأنا حائر بينهما .. أأقف على هذا أم أنظر ذاك؟! أأدعو هنا أم أبكي هناك؟! وأنا أُقتَل ألف مرة بكل ذكرى أحيتها مسرّة وأحياها ميسرة فيّ. كيف أوزع صبري؟! ..

مرت أيام عصيبة وانتقلنا للغرف العادية .. وجاء العيد ونحن ما زلنا في المستشفى .. وبدأ التكبير بعد صلاة الفجر وأنا لا أريده أن يقف. ولا أريد العيد أن يبدأ .. وكيف لعيدنا أن يبدأ وقد إنتهى عيدي بدفني لأبنائي الإثنين ميسرة ومسرّة. وعلمت بعد ذلك أن سكّاناً آخرين أصيبوا كذلك بأعراض إستنشاق هذا الغاز السام.

وعلمت بعد ذلك أن هذا المبيد الحشري «مبيد فوسفيد الألمنيوم» هو مبيد حشري فعّال في تبخير صوامع الغلال والمخازن لقتل سوس الحبوب والدقيق وكذلك لقتل الفئران والجرذان بل هو غاز قابل للإشتعال. وعلمت كذلك أن وزارة الزراعة هي التي تمنح تراخيص إستيراد وبيع المبيدات الزراعية ومنها مبيد فوسفيد الألمنيوم. وهي المسؤولة عن المراقبة للتأكد من إلتزام كل منشأة حصلت على ترخيص إستيراد هذه المادة بأنها ملتزمة بالقيود التي وضعتها وزراة الزراعة والموقّع عليها. وأن لا تُصرف هذه المواد الزراعية السامة إلا للجهات المرخّص ببيعها وإستخدامها. وأن وزارة الزراعة تطلب هذه الضمانات الموقع عليها خطياً من صاحب المنشأة التي طلبت إذن الإستيراد وذلك قبل إفساح الشحنة من الميناء مع تضمين شهادة (SASO) وهو الإختصار المعروف لهيئة المواصفات والمقاييس.

وعلمت كذلك وللأسف أن هناك أكثر من عشرين حالة وفاة على مدى عامين من جراء غياب الرقابة لبيع هذا المبيد الحشري الذي لا يدخل البلاد إلا بإذن وتصريح من وزارة الزراعة. وأنه لذلك لا تستخدمه أمانة محافظة مدينة جدة ولا تتعامل معه من قريب أو بعيد ولا تستخدمه في برامجها لمكافحة آفات المدينة لأنها تعلم بمدى خطورته. وتستخدم فقط

المبيدات التي أقرت من قبل الجهات المتخصصة وتقع فقط ضمن ما توصي به منظمة الصحة العالمية.

وعلمت كذلك أن الأمانة بدورها في تأمين الأمن والسلامة لكافة سكان مدينة جدة قد عقدت ندوتين توعويتين بمشاركة وزارة الصحة حول سبل السلامة في إستخدام المبيدات. وكانت الندوتين في شهري ٢ و٦ من هذا العام. وقد خصصت الندوة الثانية لمراقبي ومراقبات الأسواق لدينا للتعرف على هذه المادة السامة وعبواتها ومصادرتها من محلات النظافة والعطارة والبقالات الشعبية غير المرخص لها بالإتجار فيها. بل وقد قامت وزارة الصحة بالتنبيه مراراً ومراراً من خطورة هذا المبيد وضرورة إزالته من الأسواق. وقد أرسل بالفعل خطاب رسمي من مدير الشؤون الصحية بمحافظة جدة بتاريخ ١٤٢٩/٣/١٨هـ للجهات المعنيّة لتحذيرها من إنتشار هذا المبيد في الأسواق وضرورة التعامل الفوري مع هذه المآساة والكارثة التي تحصد أطفال هذه المجتمع ..

أين الرقابة إذن؟! .. مَن وضع هذا السم القاتل بهذه الكمية بين يدي من استخدمها؟! .. أين رقابة وزارة الزراعة من هذه المنتجات؟! .. وإنني أسأل اليوم إن لم تكن وزارة الزراعة هي المسؤولة فمن المسؤول؟! .. من الذي قتل طفليّ مسرّة وميسرة؟! .. من نزعهما من بين يدي وغيّبهما عن حضني؟! .. هل قتلهما حقاً هذا الجار .. أم الجهل .. أم الجشع .. أم غياب الرقابة .. أم هم جميعاً؟! .. هل هو جهل مجتمع وتقصير المسؤولين في توعيتهم؟! .. أو جشع التجار ذوي الضمائر الفاسدة وسعيهم للربح السريع؟! .. أو غياب رقابة وزارة الزراعة المسؤولة والمصرّحة لدخول هذا المبيد تحت مسئوليتها والتي أخذت التعهدات اللازمة من المنشآت الزراعية!! .. أو أن المجتمع بأسره قد قتل ميسرة ومسرّة بالتقصير في محاربة الجهل ومعاقبة الجشع وغياب الرقابة؟! ..

كيف يغلق ملف مثل هذا بهذه البساطة وهذه السهولة وتختزل القضية فقط في تجريم صاحب الشقة السفلية الذي قام باستخدام المبيد القاتل بلا رحمة في شقته؟ إن فعله القاتل ما كان ليحصد ثمرة فؤادي لو لم يعنه عليه من وفّرها له في السوق أو البقالة بل حتى محلات العطارة. لو حدث هذا في الغرب ألن تكون هناك محاسبة شديدة وفتح لملف التحقيق دون أن يكون هناك حصانة؟ فهذه حياة بشر .. وأي بشر؟! .. فهم أثمن ما أملك وليس هناك ثمن على وجه الأرض يمكن أن يقدم كتعويض عن فقد روح واحدة .. «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً». أما الصحافة فحدّث ولا حرج. فبعض الصحفيين كتبوا وليتهم ماكتبوا .. تزييف وتشويه للحقائق بل وإيذاء وتجريح لنا)).

انتهت القصة على لسان والد ميسرة ومسرّة.

إلى كل من أراد أن يعزي والد ووالدة مسرّة وميسرة .. لا تعزّوهم بكلمات جوفاء وإن خرجت من قلوب صادقة .. يكفيهما عزاء بعض الصحف والصحفيين التي اتهمتهما بالإهمال والتقصير والجهل. إتهمت الأب وهو الرجل المتعلم الواعي المثقّف الذي يحمل شهادة دكتوراة في الهندسة والحافظ لكتاب الله. والذي جمع بين علمي الدنيا والآخرة وأشهد الله أننا ما رأيناه إلا مدرسة في العِبَر ونموذجاً راقياً في التربية والتعامل مع أشد إبتلاء ومحنة. واتهمت الأم وهي السيدة الكريمة التي تحملت أعباء بيتها وتربية أبنائها وكرّست حياتها من أجلهم وأخرجت أبناءً وبناتٍ حفظةً لكتاب الله. ليكن عزاؤكم لهما أن تجعلوا من حياة ووفاة مسرّة وميسرة خيراً عظيماً لهذا الجيل. وعطاءً ومنفعةً لهذا المجتمع. فهذا ما كان أبو مسرّة وميسرة وأمهما يعملان من أجله. وقصة تربيتهما لمسرّة وميسرة لهيَ أكبر دليل. ولن يكون ذلك أبداً بمعالجة سطحية للموضوع بل بالتركيز على ما هو أحق وأولى أن يعالج.

إلى كل من أراد أن يعزي والد ووالدة مسرّة وميسرة .. أقول لهم عزوهما بأن حُيّوا لهما سيرة مسرّة وميسرة..
ليصبح ميسرة رمزاً لتيسير أمور كثيرة عُسّرت على الناس ولم تزل إلى اليوم معطّلة..
ولتصبح مسرّة رمز لإدخال السرور في نفوس اغتالتها الهموم فأصبحت بها مكدّرة..
ولنعيد للإنسان في مجتمعنا قيمته المهدرة..
ونرفع بهما شعار «البشر قبل الحجر»..
ولنُفعّل إحياءً لذكراهما قول الله تعالى «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»..

نشرت في صحيفة عكاظ
في ٨١ أكتوبر ٨٠٠٢ م

للمزيد. يمكنكم الإنضمام لمجموعة
«من قتل مسرّة وميسرة» على موقع الـ facebook

التسمم بالمبيدات

والوقاية من أخطار «فوسفيد الألمونيوم» القاتل

د. أحمد نبيل أبو خطوة
أستاذ علم السموم المشارك بجامعة الملك عبد العزيز ومستشار أمانة محافظة جدة

ماهي المبيدات الحشرية؟

هي مـواد كيميائية تعد خصيصاً لقتل الحشـرات وتعمل كسـموم عصبية أو معوية أو تنفسـية تقتل الحشـرات عادةً بمجرد تلامسها. ولا تفرق هذه السـموم بين الحشـرات والإنسـان، خاصة إذا تعرض لها بجرعات كبيرة.

هنـاك ثلاثة أنـواع من المبيدات الحشـرية تتفاوت في درجة سُـميّتها وخطورتها على الإنسان:

مبيدات الإسـتخدام العام مثل مبيدات «ريد» و «بايجـون» و «بيف باف». وهي منخفضة السـمّية ولا تسـبب ضرر للإنسـان إذا التزم بكيفية الرش الصحيحة وإذا ابتعد عن المكان الذي تم رشه حتى تتلاشى رائحة المبيد.

مبيدات مقيدة الإسـتخدام مثل «فوسـفيد الألمونيـوم» و «باراثيـون» و «ديازينون» وتتميز عادة بوضع علامة الجمجمة والعظمتين على العبوة وهي مبيدات عالية السـمّية للإنسان ويحظر استخدامها داخل المواقع السكنية. وفي أضيق الحدود، ويمكن إستخدامها بواسطة شـركات متخصصة ومرخص لهـا. ويقتصر بيع هـذه المبيدات على محـلات بيع المبيدات والأدوات الزراعية فقط.

مبيدات محظورة الإستخدام مثل «د.د.ت» و «جامكسان» و «بروميد الميثيل» وهي تتسبب في أمراض خطيرة كالسرطان ولا يسمح بالإتجار فيها.

ما هي أعراض التسمم بالمبيدات؟

تتشـابه الأعراض عادة مع التسمم بمواد أخرى مثل:

- الغثـيان
- القـيء
- العرق الغزير
- الصـداع
- الدوخة والزغللة
- الضعف العام

شكل أقراص مبيد "فوسفيد الألمونيوم" القاتل

أعراض التسمم بـ «فوسفيد الألمونيوم»

- ضيق في التنفس
- برودة الأطـراف
- التيه وعدم القدرة على التركيز
- توقف القلب
- الإغماء والموت

ملحوظة هامة:

لا يوجد ترياق أو عقار خاص لعلاج التسمم بهذا المبيد

مشـكلة تسمم الإنسـان العرضي من المبيدات الحشرية خاصة فوسـفيد الألمونيوم تعتبر مشكلة عالمية يتسبب فيها الجهل والجشع في الإتجار في المبيدات وسوء استخدامها.

يشـتري البعض المبيدات المقيدة الإسـتخدام (مثل فوسـفيد الألمونيوم) لاستخدامها في المنازل لمكافحة بق الفراش والنمل والصراصير والفئران في حين أنها مخصصة للأماكن غير الآهلة بالسكان كصوامع الغلال والسفن والقطارات.

يقتصر بيع المبيدات مقيدة الإستخدام على محلات المبيدات والأدوات الزراعية المرخص لها بذلك والتي عليها تسـجيل بيانات بيعها (إسم المشـتري، الكمية، دواعي الإستعمال). إلاّ أن بعض أصحاب البقالات ومحلات العطارة ضعاف النفوس يشتروا هذه المبيدات من التجار المرخـص لهم بفواتير وهمية ويقومون بإعادة تعبئتها في عبوات صغيرة غير آمنة وبدون أي بيانات عليها.

عندمـا تتعـرض أقـراص «فوسـفيد الألمونيـوم» للجـو تتفاعل مـع الرطوبـة وتطلق غاز «الفوسفين» السام والذي له رائحة نفاذة أشبه برائحة السمك الفاسد. ويطلق القرص الواحـد (الـذي يزن ثلاثة جرامات) حوالي جرام من غاز الفوسـفين الـذي يكفي لقتل طفل صغير.

سجلت في كثير من مدن المملكة العديد من حالات التسمم والوفيات بسبب سوء الإتجار والإستعمال لهذا المبيد.

من بنود وزارة الزراعة

«يحظر إنتاج أو تجهيز أو إعادة تعبئة أو استيراد أو تداول أو الإتجار في مبيدات الآفات الزراعية إلا إذا كانت مسجلة في وزارة الزراعة»

ماهي البدائل الآمنة للتخلص من الحشرات المنزلية؟

• للتخلص من الصراصير والنمل وبق الفراش وتفادي التهابات الجلد من لدغات البق، احرص على نظافة منزلك وتهوية الغرف ودخول الشمس إليها.

• استخدم المبيدات الآمنة في عبواتها الأصلية فقط. ونوصي بالمبيدات المحتوية على أي من المواد الفعالة التالية:

• «إيتوفنبروكس» Etofenprox
• «بيتا سيفلوثرين» Beta Cyphlothrin
• «لامدا سيهاالوثرين» Lambda Cyhalothrin

تحـــذير..

• لا تستخدم أي مبيد حشرى إن لم يكن في عبوته الأصلية.
• اقرأ بعناية الملصق «الأصلي» على العبوة والتزم بإرشادات الاستعمال والسلامة.
• كثير من حوادث تسمم الأطفال في المنزل وخاصة من عمر سنة إلى سنتين، بسبب حفظ المبيدات الحشرية المنزلية في مكان يمكن للطفل أن يصل إليها مثل المناضد أو تحت الأحواض في المطابخ والحمامات.

احتياطات السلامة والأمان الواجب إتباعها عند التعامل مع المبيدات

• تأكد من سلامة العبوة ولا تستخدم أي عبوة مفتوحة.
• إقرأ التعليمات المسجلة على العبوة وتفهمها جيداً.
• تأكد من صلاحية المبيد وكمية الجرعة المقررة وفترة الأمان.
• تأكد من أن المبيد مناسب للحشرة أو الآفة التي ترغب في مكافحتها.
• لا تستخدم المبيد بدون استعمال أدوات الوقاية والحماية الشخصية مثل: (قفازات اليد، معطف للجسم، أحذية واقية للأرجل، غطاء الرأس، كمامة واقية للتنفس، نظارة واقية للعين).
• لا تستخدم المبيدات المخصصة لرش المزروعات في الأماكن المغلقة (المنازل / المدارس).
• لا تحاول شم عبوة المبيد خاصة بعد فتحها من أجل معرفة قوة رائحة المبيد.
• لا تحاول خلط مبيدين معاً إلا بعد معرفة امكانية الخلط حسب تعليمات المصنع.
• لا تحاول استعمال المبيد بنسب أقوى مما هو مبين على العبوة وحسب تعليمات المصنع.
• لا ترش في الأوقات التي تكون فيها درجة الحرارة عالية.
• يجب عدم تناول الأطعمة والمشروبات أو التدخين أثناء استخدام المبيدات.
• تذكر غسل اليدين جيدا بعد استخدام المبيد.

بطاقة المبيد

يجب التأكد من وجود البيانات التالية على عبوة المبيد:

• الإسم التجاري للمبيد
• استخدامات المبيد وتعليمات الاستعمال
• معلومات التحذير من الخطر
• إجراءات الإسعافات الأولية
• التخلص من العلب الفارغة
• تركيبة المكونات الفعالة ونسبتها
• رقم التسجيل في المملكة
• رقم التشغيلة وتاريخ الإنتاج وتاريخ الإنتهاء
• اسم الشركة/ المؤسسة المصنعة وعنوانها
• اسم الشركة/ المؤسسة المستوردة وعنوانها

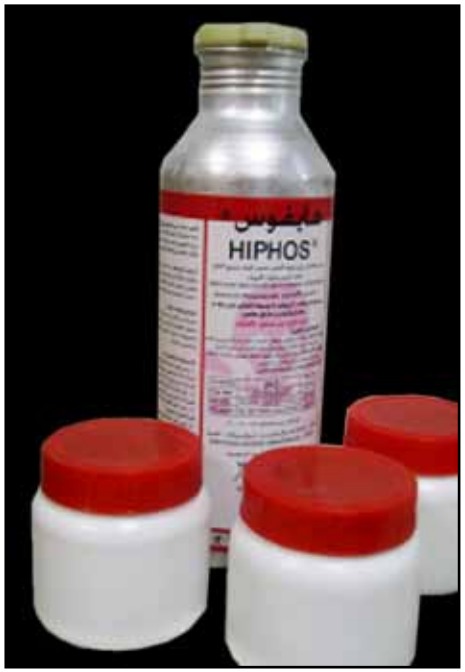

عبوات «محلية» الصنع تم تعبئتها (بدون تصريح)
من عبوة الشركة الأصلية الكبيرة محكمة الغلق

د. وليد أحمد حسن فتيحي

المؤسس، رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي

المركز الطبي الدولي بجدة

- حصل على درجة البكالوريوس في الهندسة وتحليل النظم بمرتبة الشرف الأولى، وكان الأول على دفعة المتخرجين من جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٧م.
- تخرج من كلية طب جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية وحصل على درجة الدكتوراة في الطب عام ١٩٩١م.
- تخصص في الأمراض الباطنية في المستشفيات التابعة لكلية طب جامعة هارفارد وحصل على البورد الأمريكي في الأمراض الباطنية عام ١٩٩٥م.
- حصل على الزمالة الأمريكية في الغدد الصماء والسكر من المستشفيات التعليمية لكلية طب جامعة هارفارد وحصل على البورد الأمريكي في الغدد الصماء والسكر عام ١٩٩٩م.
- حصل على درجة الماجستير في الإدارة والقوانين الصحية من جامعة هارفارد للصحة العامة عام ١٩٩٩م.
- عمل كعضو هيئة تدريس كلية طب جامعة هارفارد وكاستشاري في الأمراض الباطنية والغدد الصماء والسكر بمركز جوزلن (Joslin) العالمي للسكر في مدينة بوسطن وكمسؤول عن برنامج إدارة وعلاج مرضى السكر في العناية المركزة وعمليات القلب المفتوح بمستشفى ديكونس التابعة لكلية طب جامعة هارفارد بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٢م.
- يشغل حالياً منصب رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي لمستشفى المركز الطبي الدولي بمدينة جدة، المملكة العربية السعودية.
- عضو مجلس إدارة مستشفى دار الفؤاد في مصر.
- عضو مجلس أمناء الهيئة السعودية للتخصصات الصحية.
- نائب رئيس مجلس إدارة المعهد السعودي للخدمات الصحية.
- عضو لجنة مراجعة معايير جودة اعتماد المستشفيات التابعة للهيئة الدولية المشتركة لاعتماد المنشآت الصحية (JCI).
- رئيس مجلس أمناء الجمعية الإسلامية في بوسطن.
- عضو الجمعية العمومية لمؤسسة عكاظ للصحافة والنشر.
- له مشاركات عديدة في التدريس والمؤتمرات والندوات الطبية وله أبحاث علمية هامة نشرت في مجلات طبية عالمية.
- له مشاركات أدبية في الصحف والمجلات وعمود أسبوعي في جريدة عكاظ.
- ساهم في تمثيل الإسلام والدفاع عن القضايا الإسلامية في الوسائل الإعلامية الأمريكية المختلفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقدم عشرات المحاضرات في الجامعات الأمريكية والكنائس والمعابد والدوائر الحكومية.
- تمّ تكريمه كأفضل رئيس تنفيذي في القطاع الصحي في المملكة لعام ٢٠٠٩ من قبل دار طومسون للأبحاث والنّشر.

صدر هذا الكتيب ضمن برنامج المركز الطبي الدولي للتعليم والتثقيف الصحي وخدمة المجتمع

MRK-B10-2011